المطلب السادس

طلب التخفيف من العذاب

obeikandl.com

obeikandl.com

المطلب السادس

التخفيف من العذاب

قال رسول الله ﷺ : «إن في النار حيات كأمثال أعناق البخت تلسع إحداهن اللسعة فيجد حرها سبعين خريفاً، وإن في النار عقارب كأمثال البغال الموكفة تلسع إحداهن اللسعة فيجد حموتها أربعين سنة»[(١)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان»[(٢)] .

قال المحاسبي: يحشر الله الأمم من الإنس والجن عراة أذلاء قد نزع الملك من ملوك الأرض ولزمهم الصِّغار بعد عتوهم، والذلةِ بعد تجبرهم على عباد الله في أرضه، ثم أقبلت الوحوش من أماكنها منكسة رؤوسها بعد توحشها من الخلائق وانفرادها ذليلة من هول يوم النشور من غير ريبة ولا خطية أصابتها حتى وقفت من وراء الخلق بالذلة والانكسار لذلك الجبار، وأقبلت الشياطين بعد تمردها وعتوها خاضعة ذليلة للعرض على الملك الديان، حتى إذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامها تناثرت نجوم السماء من فوقهم وطمست الشمس والقمر فأظلما عليهم ومارت سماء الدنيا من فوقهم فدارت من فوقهم بعظمها فوق رؤوسهم وهي خمسمائة عام.

---

(١) رواه أحمد والطبراني.

(٢) رواه الترمذي والبيهقي.

obeikandi.com

فيـا هول صوت انشقاقـها في سمعـهم، وتمزقت وتفطرت لهول يوم القيـامة من عظم يوم الطامة ثم ذابت حتى صارت مثل الفضة المذابة كما قال الجبار تبارك وتعالى: ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ (سورة الرحمن:٣٧)، وقال: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ (سورة المعارج:٨-٩) أي: كالصـوف المنفوش وهو أضعف الصوف، وهبطت الملائكة من حافاتها إلى الأرض بالتقديس لربها.

فتوهـم انحدارهم من السماء لعظم أجسامهم وكثـرة أخطارهم وهول أصواتهم وشدة فرقهم من خـوف ربهم، فتوهم فزعك حينئذ وفزع الخـلائق لنزولهم مخافة أن يكونوا قد أمروا بهم فـأخذوا مصافهم محدقين بالخـلائق منكسة رؤوسهم لعظم هول يومهم قد تسربلوا أجنحتهم ونكسـوا رؤوسهم بالذلة والخضوع لربهم وكذلك ملائكة كل سمـاء إلى السماء السـابعة، قد أضـعف أهل كل سماء على أهل السـماء الذين قبلهم في العدة وعظم الأجسام والأصـوات، حتى وافى الموقف أهل السماوات السبع والأرضين السبع.

كسيت الشـمس حر عشر سنين ثم أدنيت من الخلائق قاب قـوسين أو قوس فلا ظل ذلك اليوم إلا ظل عرش الرحمن، فمن بين مستظل بظل العرش وبين مضح بحر الشمس قد صهرته واشتد فيها كربة وأقلقته.

وقد ازدحـمت الأمم وتضايقت ودفع بعضهـا بعضًا واخـتلفت الأقدام وانقطعت الأعناق من العطش، قد اجـتمع عليـهم في مقامـهم حر الشمس مع وهج أنفـاسهم وتزاحم أجسامهم ففاض العرق منهم على وجه الأرض ثم على أقدامهم ثم على قدر مراتبـهم ومنازلهم عند ربهم من السـعادة والشـقاء، فمنهم مـن يبلغ العرق منكبـيه وحقويه ومنهم إلى شحمة أذنيه، ومنهم من ألجمه العرق فكاد يغيب فيه[١].

---

(١) «التذكرة» (ص: ٢٨٢).

فتــوهم نفسك يا أخي وأنت بين يدي منكر ونكير وأصــواتهما كالرعــد القاصف وأعينهــما كالبرق الخاطف، وأنيــابهما كالصــياصي، يخرج لهب النار من أفــواههما ومناخرهما ومسامعهما، يكســحان الأرض بأشعارهما، ويحفران الأرض بأظفارهما، مع كل واحد منهما عود من حديد لو اجتمع عليه مَنْ في الأرض ما حركوه، وتخيل نفسك وقد وضعت في القبر وحيدًا فيقعدانك في قبرك وينتهرانك انتهارة يتقعقع منها عظامك، وتزول أعضاؤك من مــفاصلك فتخر مــغشيًا عليك، ثم يقــعدانك ويقولان لك: إنك في البرزخ فاعقل حالك واعرف مكانك، وينتهرانك ثانية ويقولان لك: يا هذا ذهبت عنك الدنيا وأفضيت إلى معادك فأخبرنا من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فإن كنت مؤمنًا بالله لقنك الله حــجتك فتقول: الله ربي ونبيي مــحمد وديني الإسلام فينتهرانك عند ذلك انــتهارًا يرى أن أوصالك تفرقت وعرقك قد تقطعت فــيثبتك الله بالقــول الثابت في الحــياة الدنيــا وفي الآخرة ويلقنك الأمــان ويدرأ عنك الفــزع فلا تخافهما، فــإذا فعل الله بك ذلك استأنست إليهما فيــقولان لك: صدقت وبررت أقر الله عينك وثبتك، أبشر بالجنة وبكــرامة الله، فيتسع عليك قبرك مد بصــرك ويفتحان لك بابين من الجنة فيدخل عــليك من روح الجنة وطيب ريحها ونضرتها في قــبرك ما تعرف به كــرامة الله تعالى لك وإن كنت غيــر ذلك فلك نقيض النعيم والتــثبيت ولا تلومن إلا نفسك!.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (سورة غافر:٤٩-٥٠).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ لما علموا أن الله عزَّ وجلَّ لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم بل قد قال: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ (سورة المؤمنون:١٠٨). سألوا الخزنة وهم كالسجانين لأهل النار أن يدعوا الله لهم أن يخفف عن الكافرين ولو يومًا واحدًا من العذاب فقالت لهم الخزنة رادين عليهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: أو ما قامت عليكم الحجج في الدنيا على ألسنة الرسل؟

﴿قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا﴾ أي: أنتم ادعوا لأنفسكم فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود صلاحكم ونحن منكم براء ثم نخبركم أنه سواء دعوتم أو لم تدعوا لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم، ولهذا قالوا:

﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: إلا في ذهاب لا يقبل ولا يستجاب[١].

قال سيد قطب: وحين أدرك هؤلاء وهؤلاء أنه لا ملجأ من الله إلا إليه اتجه هؤلاء وهؤلاء لخزنة جهنم في ذلة تعم الجميع وفي ضراعة تسوي هؤلاء بهؤلاء: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ إنهم يستشفعون حراس جهنم ليدعوا ربهم في رجاء يكشف عن شدة البلاء: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص:٨٣).

﴿يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ . . . يومًا، يومًا فقط، يومًا يلتقطون فيه أنفاسهم ويستريحون. فيوم واحد يستحق الشفاعة واللهفة والدعاء.

ولكن خزنة جهنم لا يستجيبون لهذه الضراعة البائسة الذليلة الملهوفة فهم يعرفون الأصول ويعرفون سنة الله ويعرفون أن الأوان قد فات، وهم لهذا يزيدون المعذبين عذابًا بتأنيبهم وتذكيرهم بسبب هذا العذاب: ﴿قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى﴾ وفي سؤاله وفي جوابه ما يغني عن كل حوار وعندئذ نقض الخزنة أيديهم منهم وأسلموهم إلى اليأس مع السخرية والاستهتار: ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ إن كان الدعاء بغير من حالكم شيئًا فتولوا أنتم الدعاء.

وتعقب الآية قبل تمامها على هذا الدعاء: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ لا يبلغ ولا يصل ولا ينتهي إلى جواب إنما هو الإهمال والازدراء للكبراء والضعفاء على سواء[1].

﴿أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ﴾ ؟ إلزام للحجة وتوبيخ وأنهم خلفوا وراءهم أوقات الدعاء والتضرع وعطلوا الأسباب التي يستجيب الله بها الدعاء.

﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ فإنا لا نجترئ على ذلك ولا نشفع إلا بشرطين: كون المشفوع له غير ظالم، والإذن في الشفاعة، مع مراعاة وقتها وذلك قبل الحكم الفاصل بين الفريقين.

وليس قولهم فادعوا لرجاء المنفعة ولكن للدلالة على الخيبة، فإن الملك المقرب إذا لم يسمع دعاؤه فكيف يسمع دعاء الظالم[2].

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص: ٣٠٨٤، ٣٠٨٥).
(٢) «تفسير الزمخشري» (جـ٣، ص: ٤٣١).

قال تعالى: ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (سورة الشورى: ٢٢).

﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ أي: في عرصات القيامة.

﴿ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ أي: الذي يخافون منه واقع بهم لا محالة، هذا حالهم يوم معادهم وهم في هذا الخوف والوجل.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ فأين هذا من هذا؟ أي أين من هو في العرصات في الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه ممن هو في روضات الجنات فيما يشاء من مآكل ومشرب وملبس ومسكن ومناظر ومناكح وملاذ ومما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال أبي طيبة: إن الشرب من أهل الجنة لتظلهم السحابة فتقول: ما أمطركم؟ قال: فما يدع داع من القوم بشيء إلا أمطرتهم، حتى أن القائل منهم ليقول: أمطرينا كواعب أترابا.

﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ أي الفوز العظيم والنعمة التامة السابغة الشاملة العامة[١].

قال سيد قطب: يعرض هؤلاء الظالمين في مشهد من مشاهد يوم القيامة يعرضهم خائفين مشفقين خائفين من العذاب وكانوا من قبل لا يشفقون بل يستعجلون

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص:١١١).

ويستهترون: ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ والتعبير الجميل يجعل إشفاقهم ﴿ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ فكأنما هو غول مفزع وهو هو الذي كسبوه وعملوه بأيديهم وكانوا به فرحين! ولكنهم اليوم يشفقون منه ويفزعون ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ وكأنه هو القلب بذاته عذابًا لا مخلص منه وهو واقع بهم!.

ونجد في الصفحة المقابلة الأخرى ـ نجد المؤمنين الذين كانوا يشفقون من هذا اليوم ويخافون نجدهم في أمن وعافية ورخاء: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾.

والتعبير كله رخاء يرسم ظلال الرخاء: ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بلا حدود ولا قيود[1].

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص: ٣١٥٣).

obeikandl.com

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ (سورة الزخرف: ٧٤-٧٨).

لما ذكر الله تعالى حال السعداء ثنى بذكر الأشقياء فقال: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي ساعة واحدة.

﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير.

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجة عليهم وإرسال الرسل إليهم فكذبوا وعصوا فجوزوا بذلك جزاءً وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد.

﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ وهو خازن النار.

﴿ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: يقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه فإنهم كما قال تعالى: ﴿ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ (سورة فاطر: ٣٦)، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ﴾ (سورة الأعلى: ١١-١٣).

فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك: ﴿ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ .

قال ابن عباس ﷺ: «مكث ألف سنة، ثم قال: إنكم ماكثون».

وقيل: أي لا خروج لكم منها ولا محيد عنها ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال: ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بيناه لكم ووضحناه وفسرناه.

﴿ولَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ أي: كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه وإنما تنقاد للباطل وتعظمه وتصد عن الحق وتأباه وتبغض أهله فعودوا على أنفسكم بالملامة واندموا حيث لا تنفعكم الندامة[1].

﴿إنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ هو عذاب دائم وفي درجة عصيبة شديدة لا يفتر لحظة ولا يبرد هنيهة ولا تلوح لهم فيه بارقة من أمل في الخلاص ولا كوة من رجاء بعيد فهم فيه يائسون قانطون: ﴿لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ كذلك فعلوا بأنفسهم وأوردوها هذا المورد الموبق ظالمين غير مظلومين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ ثم تتناوح من بعيد في الجو صيحة... صيحة تحمل كل معاني اليأس والكرب والضيق.

﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ إنها صيحة متناوحة من بُعد سحيق من هناك من وراء الأبواب الموصدة في الجحيم، إنها صيحة أولئك المجرمين الظالمين. إنهم لا يصيحون في طلب النجاة ولا في طلب الغوث فهم مبلسون يائسون، إنما يصيحون في طلب الهلاك الهلاك السريع الذي يريح، وحسب المنايا أن يكنَّ أمانيا!...

وإن هذا النداء ليلقي ظلاً كثيفًا للكرب والضيق، وإننا لنكاد نرى من وراء صرخة الاستغاثة نفوسًا أطار صوابها العذاب وأجسامًا تجاوز الألم بها حد الطاقة فانبعثت منها تلك الصيحة المريرة: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾.

ولكن الجواب يجيء في تيئيس وتخذيل وبلا رعاية ولا اهتمام: ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ فلا خلاص ولا رجاء ولا موت ولا قضاء... إنكم ماكثون[2]!

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص:١٣٥).
(٢) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص:٣٢٠٢).